



فالنصر ليس بكثرة عَدٍ ولا عُدٍ، وإنما هو بيد الله الواحد القهار، الذي يخذل من يريد خذلانهم مهما بلغوا من الكثرة والقوة، وفي هذا تنبئه لنا ألا نعتمد على الأسباب مهما بلغت، فما هي الا طمأنينة للقلوب وتنبيئاً لها على الخير والحق، أما النصر الحقيقي الذي لا معارض له فهو من عند الله، كما قال جل شأنه: {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}.

فالنُّصُرَةُ : هي طلب النصر والعون. والأسباب التي يحصل بها النصر نوعان:

النوع الأول: أسباب مادية ملموسة، وهذا النوع هو المسار إليه في قوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} أي: وَأَعِدُّوا لِعَدَائِكُمْ كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة والآلات ونحو ذلك مما يعين على قتالهم.

ويلاحظ أنَّ هذا النوع هو الذي يغلب على قلوب أكثر الخلق، ويعلقون به وحده حصول النصر والرزق، وفي هذا من قصر النظر وضعف الإيمان وقلة الثقة بوعد الله وكفايته ما الله به عليم.

فالنصر ليس بكثرة عَدٍ ولا عُدٍ، وإنما هو بيد الله الواحد القهار، الذي يخذل من يريد خذلانهم مهما بلغوا من الكثرة والقوة، وفي هذا تنبئه لنا ألا نعتمد على الأسباب مهما بلغت، فما هي الا طمأنينة للقلوب وتنبيئاً لها على الخير والحق، أما النصر الحقيقي الذي لا معارض له فهو من عند الله، كما قال جل شأنه: {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}.

ولهذا أدب الله عز وجل صحابة نَبِيِّهِ -وهم خيار الخلق- حين أُعْجِبَ بعضهم بكثرتهم في غزوة حنين حتى قال قائلهم: «لَنْ نُنْكِبَ الْيَوْمَ عَنْ قِلَّةٍ»، فَؤَكِلُوا إِلَيْهِ هذه الكلمة، فَكَانَتِ الْهَزِيمَةُ فِي الْابْتِدَاءِ، وفَرَّ مُعَظَّمُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمَيْدَانِ وَاشْتَدَتْ عَلَيْهِمُ الْأَزْمَةُ حَتَّى ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ -عَلَى رَحْبَهَا وَسَعْتِهَا- ثُمَّ وَلَوْا مَنْهَمِينَ، إِلَّا رَسُولُ اللهِ فَإِنَّهُ ثَبَتَ وَلَمْ يَقْرَرْ، وَصَمَدَ وَلَمْ يَتَخَذِلْ، بَلْ كَانَ يَدْعُو رَبِّهِ بِدُعَائِهِ الْخَاشِعِ قَائِلاً: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضْدِي وَأَنْتَ نَصِيرِي بِكَ أَحُولُ وَبِكَ أَصْوُلُ وَبِكَ أَفَاتُلُ».

فَلَمَّا زَالَ الْعُجْبُ عَنِ الصَّحَابَةِ وَعَرَفُوا ضَعْفَهُمْ، أَنْزَلَ اللَّهُ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْزَلَ جُنُودًا مِنْ عَنْهُ يَثْبِتونَهُمْ وَيَبْشِرُونَهُمْ حَتَّى

وأما النوع الثاني: فهو الأسباب المعنوية وهي قوة التوكل على الله، وكمال الثقة به وقوّة التوجّه إليه والطلب منه. وهذه الأمور تقوى جدًا من الضعفاء العاجزين الذين أجأتهم الضرورة إلى أن يعلموا حق العلم أنّ كفایتهم ورزقهم ونصرهم من عند الله وأنّهم في غاية العجز فتكسر بذلك قلوبهم وتتوجّه إلى الله ثقة فيه وطمعا في فضله وبره ورجاء لما في يديه الكريمتين.

فَيُنْزَلُ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ نَصْرٍ هُوَ أَدْرِكُهُ الْقَادِرُونَ، بِلْ وَيِسِّرْ لِلْقَادِرِينَ بِسَبِّبِهِمْ مِنْ أَسْبَابِ النَّصْرِ وَالرِّزْقِ مَا لَمْ يَخْطُرْ لَهُمْ بِبَالٍ، وَلَا دَارٌ لَهُمْ يَوْمًا فِي خِيَالٍ.

والسر في ذلك أنَّ لِلَّهِ جنود السماوات والأرض، جميعها في ملکه، وتحت تدبیره وقهره، وهي لفطر كثرتها لا يعلم حقيقتها وعددها وقدرتها الا هو سبحانه، فهو وحده الذي يكشف عما يريد الكشف عنه من أمرها، في الوقت الذي يريد و بالطريقة والهيئة التي يريدها، لذا فهي غيب، كما قال تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودُ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ} (المدثر: 31).

وقد يَعْجَبُ الإِنْسَانُ حِينَ يَعْلَمُ أَنَّ مِنْ هَذِهِ الْجَنُودِ: الْضَّعْفَ وَالْمَرْضَ وَذُوِّي الْحِلْيَاتِ الْخَاصَّةِ، وَلَوْلَا وَرُودِ النَّصْوصِ الصَّحِيحةِ فِي ذَلِكَ لَكَانَ الْأَمْرُ مَحْوَرَ جَدْلٍ وَأَخْذٍ وَرَدٍّ، أَسْوَقَ مِنْ هَذِهِ النَّصْوصِ اثْنَيْنِ:

• الأول : ما رواه الإمام البخاري في كتاب الجهاد والسير من صحيحه - باب: مَنْ اسْتَعَانَ بِالضَّعْفِ وَالصَّالِحِينَ فِي الْحَرْبِ - عن مُصْنَعِبَ بْنِ سَعْدٍ، قال: رَأَى سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ دُونَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "هُلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعْفَائِكُمْ".

أراد صلی الله عليه وسلم بذلك حض سعد على التواضع ونفي الزهو على غيره وترك احتقار المسلم في كل حالة.

والسؤال الذي قد يتبارد إلى الذهن: ماهي المنزلة التي أراد سعد أن يتميز بها عن إخوانه؟

نجد الجواب شافيا و تتضح لنا الصورة كاملة حين نضم الروايات بعضها إلى بعض، ففي رواية الإمام عبد الرزاق: قال سعد يا رسول الله: أرأيت رجلا يكون حامية القوم ويدفع عن أصحابه أىكون نصيبه كنصيب غيره؟ فذكر الحديث، وعلى هذا فالمراد بالفضل - كما يقول الحافظ ابن حجر - إرادة الزيادة من الغنيمة، فأعلمه صلی الله عليه وسلم أنَّ سهام المقاتلة سواء، فإنْ كان القوي يترجح بفضل شجاعته فإنَّ الضعيف يترجح بفضل دعائه وإخلاصه.

و الاستفهام في الحديث للتقرير، أي ليس النصر وإدرار الرزق إلا ببركتهم، فأبرزه في صورة الاستفهام ليدل على مزيد التقرير والتوضيح.

• الثاني- ما رواه الإمام أحمد و الترمذى عن أبي الدرداء، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "أَبْغُونِي ضُعْفَائِكُمْ، فَإِنَّكُمْ إِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعْفَائِكُمْ".

ومعنى «أَبْغُونِي» أي اطْلُبُوا رِضَايَ فِي ضُعْفَائِكُمْ، وتقربوا إِلَيَّ بالتقرب إليهم وتفقد حالهم وحفظ حقوقهم والإحسان إليهم قولًا وفعلا واستئصارا بهم، فهم الأحق بمجالستي، وبالقرب مني.

ومعنى إنَّما تنصرون وترزقون بضعفائكم: أي إنَّما تُمَكِّنُونَ من الانتفاع بما أخرجنا لكم وتعانون على عدوكم ويدفع عنكم البلاء والأذى بسبب وجود ضعفائكم بين أظهركم، أو بسبب رعايتكم لهم أو ببركة دعائهم، وذلك لأنهم أشد إخلاصا في الدعاء وأكثر خصوصا في العبادة لجلاء قلوبهم عن التعليق بزخرف الدنيا، ومن هنا استدل بعض العلماء على استحباب إخراج الشيوخ والصبيان في صلاة الاستسقاء، فالضعيف إذا رأى عجزه وعدم قوته تبراً عن الحول والقوة بإخلاص، ورق

قلبه واستكان لربه وتضرع إليه فيستجيب الله دعاءه ويحقق له رجاءه، وكم من فئة قليلة غلت فئة كثيرة بذنب الله، بخلاف القوي فإنه يظن أنه إنما يغلب الرجال بقوته، فيكمل الله إلى نفسه على قدر عجبه، ويكون ذلك سبباً للخذلان.

والمحض بالضعفاء: مَنْ يكون ضعفه في بدنـه (المرض الجسـمـانـي) أو في نفسه (المرض الذهـنـي والنـفـسي) أو في حالـه (الفـقـر وقلـة ذاتـ الـيدـ)، والنـصـوص تـشـمـلـ الـأـنـوـاعـ الـثـلـاثـةـ، فـإـنـ قـيـلـ بـأـنـ الـمـقـصـودـ بـالـضـعـفـاءـ هـمـ منـ يـسـتـضـعـفـهـمـ النـاسـ لـفـقـرـهـمـ وـرـثـاتـهـمـ، لـأـنـهـمـ هـمـ الـذـيـنـ يـسـتـطـيـعـونـ الدـعـاءـ وـالـصـلـاـةـ، كـمـاـ فـيـ روـاـيـةـ النـسـائـيـ: قـالـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ: "إـنـمـاـ يـنـصـرـ اللهـ هـذـهـ الـأـمـةـ بـضـعـيفـهـاـ: بـدـعـوـتـهـ، وـصـلـاـتـهـ، وـإـخـلـاصـهـ".

فالجواب أن الدعاء والصلوة والاخلاص قد تتحقق في النوعين الآخرين، ليس من المريض نفسه وإنما ممّن يقوم على رعايته ، فكم من مريض يتضرع أهله إلى الله وتنكسر له قلوبهم أكثر من صاحب المرض ذاته.

الجمع بين التوكل واليقين وبين الأخذ بالأسباب:

قد يظن القارئ الكريم أن هناك تعارضـاـ بين النـصـوصـ السـابـقـةـ وـبـيـنـ النـصـوصـ الـتـيـ تـمـدـحـ الـمـؤـمـنـ الـقـوـيـ وـتـأـمـرـهـ بـالـأـخـذـ بـالـقـوـةـ وـالـاسـتـعـدـادـ لـلـأـعـدـاءـ، وـعـنـ التـأـمـلـ نـجـدـ أـنـهـ لـاـ تـعـارـضـ، إـذـ الـمـرـادـ أـنـهـ مـتـىـ تـمـكـنـ الـمـسـلـمـ مـنـ الـأـخـذـ بـأـسـبـابـ الـقـوـةـ الـمـادـيـةـ وـتـيـسـرـتـ لـهـ فـعـلـيـهـ أـنـ يـسـارـعـ وـلـاـ يـفـرـطـ وـلـاـ يـقـصـرـ.

وقد ورد الجمع بين الأمرين في قول الله عز وجل لنبيه: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} (الحجر: 99).

والمعنى: استمر في جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات البدنية والمالية والقلبية، حتى يأتيك الموت، وأنت على ذلك، وقد امتنع أمر ربه - يأتي هو وأمي - صلـى اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ -، فـلـمـ يـزـلـ دـائـيـاـ فـيـ الـعـبـادـةـ بـجـمـيـعـ أـنـوـاعـهـ حـتـىـ أـتـاهـ الـيـقـيـنـ، كـمـاـ جـمـعـ النـبـيـ الـكـرـيمـ بـيـنـ الـأـمـرـيـنـ فـيـ قـوـلـهـ "الـمـؤـمـنـ الـقـوـيـ خـيـرـ، وـأـحـبـ إـلـىـ اللهـ مـنـ الـمـؤـمـنـ الـضـعـيفـ". وـفـيـ كـلـ خـيـرـ. اـحـرـصـ عـلـىـ مـاـ يـنـفـعـكـ، وـاسـتـعـنـ بـالـلـهـ وـلـاـ تـعـجـزـ...".

فقوله: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ» أمر بكل سبب ديني ودنيوي، بل أمر بالجد والاجتهد فيه والحرص عليه، نية وهمة، فعلاً وتدبرًا.

وقوله: «وَاسْتَعْنُ بِاللَّهِ» أمر بالاعتماد التام على الله في جلب المصالح ودفع المضار، مع الثقة التامة في تحقيق ذلك. أَمَّا إذا لم يتمكن المسلم من الجمع بين الأمرين -كأن حبسه المرض في نفسه أو غيره - فعليه خفض الجناح ورقة القلب والانكسار بمشاهدة جلال الجبار.

والخلاصة أن قلب العبد وجوارحه في حالة استنفار تام في ذات الله، الجوارح تستفرغ الوسع في الأسباب حتى يحس صاحبها من نفسه أنه لا مزيد، والقلب يستجلب رضا الله وعونه وثقته ورجاءه والطمع فيه، فـإـنـ حدـثـ وـقـعـتـ بـهـ الـأـسـبـابـ فـلـيـتـحـرـكـ بـقـلـبـهـ إـلـىـ اللهـ، فـإـنـ اللهـ مـنـجـزـ لـهـ مـاـ وـعـدـ، وـلـيـسـ هـذـاـ فـحـسـبـ بـلـ رـبـماـ تـفـجـرـتـ يـنـابـيعـ الـحـكـمـةـ مـنـ قـلـبـهـ عـلـىـ لـسـانـهـ.

فلنحرص على تذكير الضعفاء وذويهم بهذه المـنـةـ، وـأـنـ يـقـبـلـواـ مـنـ اللهـ صـدـقـتـهـ، وـأـلـاـ يـسـتـصـغـرـواـ جـهـودـهـمـ، فـدـعـاؤـهـمـ لـاـ يـقـلـ تـأـثـيـراـ فيـ الـأـعـدـاءـ عـنـ تـأـثـيـرـ الـأـسـبـابـ الـمـادـيـةـ مـنـ أـسـلـحةـ وـعـتـادـ.

اللـهـمـ أـصـلـحـ لـنـاـ شـأـنـنـاـ كـلـهـ، وـلـاـ تـكـلـنـاـ إـلـىـ أـنـفـسـنـاـ طـرـفـةـ عـيـنـ، وـلـاـ إـلـىـ أـحـدـ مـنـ خـلـقـكـ. آمـينـ

